العربية الفصحى
وعوامل تجددها

إعداد الدكتور

د / جمال مصطفى شتا

أستاذ اللغويات المساعد بجامعة القصيم

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لله الذي جعل الإسلام ديننا وسيدنا محمدا نبينا والعربية لساننا، وجعلنا خير أمة أخرجت للناس، والصلاة والسلام على أفصح من أوتي جوامع الكلم، سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم العرض على العزيز الغفار.

وبعد،

فإن ادعاء المبطلين أن العربية الفصحى جامدة وليست قادرة على ملاحقة التطور العلمي والتقني لدعاء باطل، تنفيه وتبطله الأدلة الدامغة التي هي كضياء الشمس في اليوم الصحو؛ لأن الفصحى في عصور الإسلام الأولى كانت لغة التأليف في العلوم النظرية والتطبيقية، واللغة العالمية التي كان يقبل عليها من يريد عز الدنيا والآخرة، وهذا معلوم ضرورة للعدو قبل الصديق.

وقد ترك المسلمون الأوائل تراثا ضخما من المؤلفات العلمية في شتى فروع العلم النظري والتطبيقي استفاد منه الغربيون واتخذوه أساسا بنوا عليه حضارتهم الحديثة.

وقد شهد بذلك مؤرخو الحضارة الغربيون، منهم: سارتون(Sarton)، وول ديوارنت(Wall Dioarndt)، وألدوميلي(Oldumile)، ونللينو(Nellino)، وأماري (Amari)، وآدم ميتز (Adam Metz)، ولوبون (Le Bon)، ودي بور (De Boer)،

وأوليري (O'Leary)، وبراون (Brown)، وكراتشكوفسكي (Kraczkowski)، وتوينبي (Toynbee)، وزيجرد هونكه (Honeka Zegred)..." [١، ص ١٣٥].

إن الحضارة الإسلامية تركت تراثا ضخما من المؤلفات العلمية في شتى فروع العلم قام علماء غرب بترجمتها إلى اللغات الغربية وبنوا على ما وصل إليه العلماء العرب(١).

---

(١) لمعرفة الكتب العلمية العربية المترجمة إلى اللغات الغربية انظر: لأندوميلي، (تاريخ العلم عند العرب)، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ود. محمد يوسف موسى، القاهرة، مصر، دار القلم،١٩٦٢م، و: د. توفيق الطويل، الفصل الأول من كتاب: (العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي)، مصر، النهضة العربية، ١٩٦٨م. وكراتشكوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي العربي)، ترجمة د. صلاح الدين هاشم، نشر جامعة الدول العربية نقلا عن:[١،ص١٣٥(الهامش)]. وانظر: قدري حافظ طوقان: (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك)، مصر، دار الشروق،د.ت. و د. أحمد فؤاد باشا: (التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة)، مصر، القاهرة، ١٩٨٣م، وله أيضا: (التراث العلمي الإسلامي شيء من الماضي أم زاد للآتي)،= = القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠٢م. و دونالدهيل: (العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية)، ، ترجمة د. أحمد فؤاد باشا، الكويت، سلسلة عالم المعرفة (٣٠٥) ٢٠٠٤م.

=

فالعداء للفصحى قائم، من أهلها ومن غير أهلها، فمن أهلها يكون غالبا عن غير قصد وعن جهل، أما من غير أهلها فهو عن عمد وتربص. ولا عجب أن نجد الآخرين يحطون من لغتنا الفصحى، ولكن العجب كل العجب أن ترمى العربية في مقتل من أبنائها، الذين فضلوا الحديث بغيرها داخل أوطانهم، ورفعوا شأن من يتشدق بلغات أعجمية، وحطوا قدر من يتمسك بلغته العربية، وكلما مر جيل منهم أتى آخر ينهج نهج سلفه، ولذلك استمرت الحاجة إلى تجديد الدعوة لتفنيد مزاعم هؤلاء وتبيان مزايا الفصحى وقوتها، وأن ضعفها راجع إلى جهل هؤلاء بها وليس راجعا إلى ذاتها.

وتكمن أهمية هذا البحث في أهمية موضوعه الذي ينافح عن العربية الفصحى مؤكدا عالميتها وقدرتها على استيعاب ما يستجد من علوم عن طريق عرض وسائل الفصحى لإنماء ثروتها اللفظية، وأن هذه الوسائل ليست مستحدثة وإنما ابتدعها أصحاب اللغة أنفسهم حينما اقتحمت لغتهم ألفاظ أعجمية، وتعد هذه الوسائل من صميم خصائص الفصحى.

كما أن هذا البحث يعد أيضا صرخة تنبيه للغيورين على لغتنا

وللمزيد انظر: (موسوعة الحضارة الإسلامية)، إعداد مجموعة من العلماء ، بإشراف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية،سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة (٤)، القاهرة١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

وللقائمين على صنع القرار في جميع وطننا العربي ليصنعوا لنا كيانا ويرفعوا لنا راية ويضعوا أمتنا في مكانها الذي تستحقه بين دول العالم.

وقد جاء بحثنا هذا ضاما تمهيدا و فصلين وخاتمة تعرض النتائج.

أما التمهيد فبين أهمية اللغة للشعوب ومكانة العربية الفصحى بين اللغات.

وتناول الفصل الأول بعض الخصائص التي تميزت بها الفصحى.

ثم جاء الفصل الثاني ليعرض ويناقش الوسائل التي اتخذتها الفصحى لإثراء معجمها، واستيعاب ما يجد من مصطلحات علمية، من قياس واشتقاق وتعريب ونحت وإبدال وقلب وتوليد وغيرها.

هذا وأضرع إلى الله عز وجل أن يحفظ لنا ديننا ولغتنا وأمتنا ويجعلنا قادرين على حمايتها جميعا، كما أشكره سبحانه على عونه لي على إتمام هذا البحث، فإن كنت وفقت فمنه تعالي، وإن كنت أخطأت أو قصرت فمن نفسي، فأشكره على التوفيق وأستغفره على الزلل والخلل، والحمد لله أولا وآخرا.

تمهيد

لختلاف الألسنة آية من آيات الله في خلقه؛ قال تعالى: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) [الروم:٢٢].

واللغة هي هُوية الأمة، ومصدر اعتزازها، ودالة على أمجادها وآثارها؛ لذا فهي تحظى بالتقدير والاعتزاز والفخر، وهي رمز الكرامة الوطنية، والشخصية المتميزة. وهي مستودع الإنتاج العقلي، والحكمة المستخلصة من عِبَر الدهر، والمعاناة والنظر في أحداث الكون، وهي وعاء الثقافة الوطنية، ووعي الأمة بذاتها ومكانتها وقيمها، واللغة العربية لها كل ذلك وتزيد؛ إنها لغة التنزيل الكريم، ووعاء شريعة الله، ولغة الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده دينًا، ووسعت مراد الله من عباده.

ولا أعلم لغة من لغات العالم، على مر العصور، واجهت- وما تزال تواجه- حروبا شعواء، من أبنائها ومن غير أبنائها، مثلما واجهت اللغة العربية؛ وذلك لأنها لغة القرآن الكريم، لغة المسلمين التي يتعبدون بلسانها ويتقربون إلى الله تعالى بالقرآن النازل بها.كذلك لا أعلم لغة استطاعت أن تتحدى الأخطار، وتجتاز الاختبارات الهائلة صامدة صابرة مثابرة، وتنتصر على أعدائها وتظل باقية حية زمنا أطول - غير اللغة العربية.

فالعربية لغة حية ولكنها ليست ككل اللغات، فاللغة كالكائن الحي يولد وينمو ويمر بمراحل الصبا والشباب والشيخوخة ثم الموت [٢، ص ١٩٠]، ولكن الفصحى ولدت ونمت ومرت بمراحل الفتوة والشباب

والقوة، ولكنها لم تهرم ولن تشيخ ولن تموت بإذن الله تعالى، وإنما جاء الضعف من جهة أهلها المنتسبين إليها، حينما أهملوها ولم يأخذوا أنفسهم بها أخذا جادا، وفضلوا الرطانة بألفاظ أعجمية عليها، ونحوّها عن المعاهد العلمية، والمؤتمرات العلمية، ووسائل الإعلام. والأعجب من ذلك أن بعضهم رماها بالضعف والجمود وعدم قدرتها على استيعاب علوم العصر الحديث والتطور الهائل في مناحي العلوم المختلفة.

وهم بهذا الاتهام إنما يصدرون عن ضعف في فهم الفصحى وعجز عن البحث فيها ودراستها.

إن العربية انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها وحلت بألسنة أقوام كانوا يتكلمون بغيرها، في وقت لم يتجاوز قرنا من الزمان، وذلك مع انتشار الإسلام في الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب والهند وغيرها.

إن الفصحى في العصرين الأموي والعباسي استوعبت علوم اليونان والرومان والهند والفرس، بترجمة كتبهم إليها، وألف علماء المسلمين – الذين لم يكونوا عربا أصلا– في العلوم الطبية والطبيعية والجغرافية، وغيرها من العلوم، بالفصحى أيضا.

إن الله عز وجل اختار الفصحى دون سائر اللغات لتكون وعاء لكلامه العزيز– القرآن– فكتب لها بذلك البقاء، ولا نقصد بقاء صورتها كتابة ونطقا فقط المتمثل في النطق الصحيح لألفاظها والترتيب السليم لتراكيبها والمحافظة على إعرابها، وإنما حافظ على النطق السليم لأصواتها، مخرجا وصفة، من تفخيم وترقيق واستطالة وتفشي وصفير واستعلاء واستفالة، وغيرها من الصفات اللازمة لها، وذلك لأن القرآن

لابد أن يؤخذ ويتلى بالتلقي عن المشايخ جيلا وراء جيل إلى عصر النبوة.

ولما كان القرآن نازلا باللسان العربي المبين(بلسان عربي مبين) [الشعراء:١٩٥] ، وقد تكفل الله عز وجل بحفظه من التحريف والتبديل، قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر:٩] ضمن للغة بهذا أيضا الحفظ من التحريف والتبديل فضلا عن الاندثار.

وكما ضمن القرآن الكريم للفصحى البقاء ضمن لها الإسلام الانتشار والعالمية، فالإسلام خاتم الأديان، ورسوله سيدنا محمدﷺ خاتم الرسل والأنبياء، وقد أرسله الله رحمة للعالمين إنسهم وجنهم، قال تعالى:(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[الأنبياء:١٠٧]، وقال تعالى: (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)[سبأ:٢٨].وقد تعهد الله أيضا بإظهار الإسلام على سائر الأديان ولو كره المشركون، قال تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)[التوبة:٣٣، الصف:٩].

ولذلك كان لزاما على المسلمين أن يرحلوا، ناشرين للإسلام، تجاه المشارق والمغارب والشمال والجنوب ليبلغوا رسالة الله للعالم كله. وكان لابد لمن يدخل في الإسلام أن يتعلم العربية الفصحى ليؤدي بها شعائر الإسلام من صلاة وقراءة القرآن ودعاء، فضلا عن أن كثيرا منهم تعمق في دراستها ليفهم القرآن فهما علميا صحيحا بفهم أسراره وأحكامه الشرعية واللغوية وبتذوق بلاغته وفصاحته، فكانت النتيجة أن رغبت الشعوب عن لغاتها إلى العربية الفصحى، مما وسع انتشارها، بل أدى إلى اندثار لغاتهم الأصلية، فحلت الفصحى محل الآرامية في مناطق

الشام والعراق، وانمحت القبطية المصرية واليونانية والبربرية، وتخلت الفارسية لوقت ما عن مكانها للعربية [٣، ص٢٠، ٤، ص١٦].

وصار العرب بالإسلام أمة كبيرة بعد أن كانوا محصورين في الجزيرة العربية، وصارت العربية لغة أمم كثيرة في الشرق والغرب والشمال والجنوب، فالعرب ذابوا - بانتشارهم- في الأمم ولكن الفصحى هي التي لم تذب، بل انتشرت وامتدت وقهرت ما حولها من اللغات بفضل هذا الدين العظيم.

العلة في اختيار العربية لغة للقرآن

ولكن لماذا كانت العربية هي اختيار القرآن لتكون وعاءه دون سائر الساميات، على الرغم من أن أهلها كانوا في عزلة عمن حولهم، ولم يقدر لها الانتشار في ذلك الوقت؟!

فالجواب عن ذلك أن الفصحى كان لها من الخصائص والبلاغة وغنى الألفاظ ما لم يكن لغيرها، فعدد أصواتها فاق أصوات غيرها من الساميات وغير الساميات، بمثل الحاء والخاء والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف. وعدد موادها اللغوية من الكثرة ما يجعلها أوسع تعبيرا وأدقه، حيث بلغ أربعمائة ألف مادة [٤، ص٨].

كما أنه كان للعرب لغة أدبية نموذجية مشتركة سمت على اللهجات المحلية ولا تتضمن صفة خاصة لإحدى القبائل، وقد نشأت هذه اللغة المشتركة ونمت وازدهرت قبل الإسلام، وأصبحت قبيل ظهور الإسلام سجلا لكل الآداب الجاهلية [٥، ص١٧٤].

وهذه اللغة المشتركة هي التي نزل بها القرآن الكريم، أما العوامل

التي أدت إلى تكون هذه اللغة المشتركة فمنها السياسي، حيث تطلع العرب إلى بيئة الحجاز لمكانتها الدينية ولوجود أصنامهم بمكة. ومنها الاقتصادي المتمثل في أسواق :عكاظ ومجنة وذي المجاز وخيبر، حيث خصص ركن فيها للمساجلات الأدبية والمباريات الشعرية. ومنها الديني المتمثل في موسم الحج بمكة [٥، ص١٧٥]. وهكذا قدر للعربية الفصحى المشتركة بين جميع قبائل العرب قديما أن تكون لغة مشتركة أيضا بين جميع البلدان العربية حديثا، توحد ثقافتهم وتعرض أفكار بعضهم لبعض وتجمع شملهم وتعلي رايتهم إن شاء الله تعالى.

الفصل الأول

خصائص العربية الفصحى

إننا حينما نتحدث عن خصائص الفصحى فإنما نتحدث عن لغة تكاملت عناصر بنائها وجمالها وقوتها لتستأهل أن تكون لغة القرآن- كلام الله - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن تصير لغة عالمية لكثير ممن دان بالإسلام.

ولذلك فإن فيلسوف العربية ابن جني- رحمه الله تعالى- ألف كتابا ضخما من ثلاثة مجلدات، سماه: (الخصائص) أي: (خصائص العربية) ضمنه عشرات الأبواب التي تتحدث عن أصل اللغة ومزايا العربية الفصحى وخصائصها كتجاذب المعاني والإعراب، والفصيح وغير الفصيح،واختلاف اللهجات وكلها حجة، والحذف،والاشتقاق، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى. وكان- رحمه الله- دائما ينعت الفصحى بقوله: " اللغة الشريفة الكريمة المنقادة اللطيفة" [٦، ج١/١،١٨،٤٨،٢٤٠].

يقول أرنست رينان (Ernest Renan):"ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها. وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم أن علمت ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر، حتى أنه لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة" [٤، ص٣٠٣].

فمن خصائص العربية فصحى:

١- أنها أقدم اللغات السامية، التي منها العبرية والكلدانية والآشورية والسريانية والفينيقية والحبشية، فقد رجح الباحثون ذلك لفقر هذه اللغات بالنسبة للعربية التي تشابهت معها في كثير من الخصائص، كما أثبتت الدراسات التي قامت حول هذه اللغات أن العربية أرقاهن، مما دل على قدم تطورها وأنها أعرق في القدم [٤، ص٢٢،٢٣].

٢- أن في أبجديتها أصواتا لا توجد في كثير من لغات العالم، مثل: الحاء والخاء، والضاد والطاء، والظاء، والعين، والغين، والقاف، إضافة إلى أن عدد أصواتها الأبجدية ثمانية وعشرون صوتا، وقد فاق أبجديات لغات عالمية كالإنجليزية التي هي ستة وعشرون صوتا، مما يؤكد ثراءها اللفظي [٤، ص٩].

وأصوات العربية ثابتة على مدى العصور والأجيال منذ أربعة عشر قرنًا. ولم يُعرف مثل هذا الثبات في لغة من لغات العالم في مثل هذا اليقين والجزم. إن التشويه الذي طرأ على لفظ الحروف العربية في اللهجات العامية قليل محدود، وهذه التغيرات مفرقة في البلاد العربية لا تجتمع كلها في بلد واحد [٧، ١/٥].

٣- أنها تملك أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات، حيث تتوزع مخارج الحروف من بين الشفتين إلى أقصى الحلق. وقد تجد في لغات أخرى غير العربية حروفا أكثر عددًا ولكن مخارجها محصورة في نطاق أضيق ومدرج أقصر، كأن تكون مجتمعة متكاثرة في الشفتين وما والاهما من الفم أو الخيشوم في اللغات الكثيرة الغنة (كالفرنسية مثلاً)،

أو تجدها متزاحمة من جهة الحلق .

وتتوزع هذه المخارج في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات. ويراعي العرب في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة حدوث الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي. فمثلاً لا تجتمع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال. ولا تجتمع الجيم مع القاف والظاء والطاء والغين والصاد، ولا الحاء مع الهاء، ولا الهاء قبل العين، ولا الخاء قبل الهاء ، ولا النون قبل الراء ، ولا اللام قبل الشين [٧، ١/٤].

٤- كثرة ألفاظها وغزارة مفرداتها، فقد ذكر السيوطي أن الخليل بن أحمد ذكر عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل (١٢.٣٠٣.٤١٢) بناء [٨، ج١/٧٤]، وذكر أبو بكر الزبيدي في مختصر كتاب (العين) أن عدد الألفاظ العربية(٦.٦٩٩.٤٠٠) [٨، ج١/٧٥، ٤، ص٦]، ومما هو معروف أن عدد مواد معجم لسان العرب ثمانون ألف مادة لغوية [٤، ص٦]، المهمل منها كثير ولم يستعمل إلا القليل. وكان من نتيجة ذلك اتساع العربية في تخصيص وحدات لغوية معينة لكل دلالة، ومدى دقتها في التفريق بين الدلالات المتقاربة جدا [٩، ص٣٥]. يقول فان ديك (Van Dijk):" العربية أكثر لغات الأرض امتيازا، وهذا الامتياز من وجهين: الأول من حيث ثروة معجمها، والثاني من حيث استيعاب آدابها" [٤، ص٣٠٨].

٥- توسعها في الاشتقاق، مما يجعلها طوع أهلها وأوفى بحاجة المتكلمين بها، من غيرها من اللغات[٤، ص١٠]، فمثلا اشتقوا من (الضرب): ضَرَبَ، ويَضْرِبُ، واضْرِبْ، وضارِبٌ، ومضرُوبٌ، وسموا آلة

الضرب: مِضْربا ومِضْرابا. وقالوا: ضارَبَه، أي: جالَدَه، وتَضَرَّب الشيءُ واضطربَ، أي: تَحَرَّك وماجَ، وحديثٌ مُضْطرِبٌ وأمر مُضْطرِبٌ. والضريبةُ: ما ضربتَه بالسيف، وضارَبَه بالمال، من المُضاربة،وهي أن تعطي إنسانا من مالك ما يتجر فيه على أن يكون له سهم معلوم من الربح. هذا إلى جانب المعاني المجازية التي يستعملون فيها الكلمة، فيقولون: ضَرَبَ الدراهمَ والدنانير، أي: صكها، واضطرَبَ خاتما من ذهب،أي: أمر أن يُصاغَ له. وضرَبَ في الأرض: إذا سار فيها مسافرا، وضربَتِ الطيرُ: ذهبت، وضربَ في سبيل الله: نهَضَ، وضَرَبَ على يدِهِ:كفَّه عن الشيء ومنعه، وأضربَ عن العمل:كف، وأضربَ البردُ النبات وضربه: إذا اشتد عليه البردُ حتى يبس. والضريبة: الصوف أو القطن يُضْرَب بالمطرقة، والضريبُ من اللبن: الذي يُحلبُ من عدّة لقاح في إناء واحد فيضرب بعضه ببعض، ثم أخذوا منه: فلان ضريبُ فلان، أي: نظيره، والضُرَباء: النظراء، والضرائب:الأشكال. وضربُ المثلِ: ذكرُهُ... [٩،ص٣٧،٣٨، ١٠، (ضرب)].

"وتشترك الألفاظ المنتسبة إلى أصل واحد في قدر من المعنى وهو معنى المادة الأصلية العام. أما اللغات الأخرى كالأوروبية مثلاً فتقلب عليها الفردية. فمادة (ب ن و) في العربية يقابلها في الإنكليزية : (son): ابن، و (daughter): بنت. أما في الفرنسية فتأتي مادة (ك ت ب) على الشكل التالي: كتاب: (livre)، مكتبة عامة: (bibliothèque)، محل بيع الكتب: (librairie)، يكتب: (écrire)، مكتب: (bureau) [٧، ج١/٥].

٦- أن صيغ الكلمات في العربية هي اتحاد قوالب للمعاني تُصبُّ

فيها الألفاظ فتختلف في الوظيفة التي تؤديها. فـــ(الناظر) و(المنظور) و(المنظر) تختلف في مدلولها مع اتفاقها في أصل المفهوم العام الذي هو (النظر). الكلمة الأولى فيها معنى الفاعلية والثانية المفعولية والثالثة المكانية.

"وللأبنية والقوالب وظيفة فكرية منطقية عقلية. لقد اتخذ العرب في لغتهم للمعاني العامة أو المقولات المنطقية قوالب أو أبنية خاصة: الفاعلية- المفعولية- المكان- الزمان- السببية- الحرفة- الأصوات- المشاركة- الآلة- التفضيل- الحدث.

وللأبنية وظيفة فنية، فقوالب الألفاظ في العربية أوزان موسيقية، أي أن كل قالب من هذه القوالب وكل بناء من هذه الأبنية ذو نغمة موسيقية ثابتة. فالقالب الدال على الفاعلية من الأفعال الثلاثية مثلًا هو دومًا على وزن فاعل والدال على المفعولية من هذه الأفعال على وزن مفعول .

وتتميز اللغة العربية بالموسيقية فجميع ألفاظها ترجع إلى نماذج من الأوزان الموسيقية، والكلام العربي نثرًا كان أم شعرًا هو مجموع من الأوزان ولا يخرج عن أن يكون تركيباً معينًا لنماذج موسيقية [٧، ج١/٦].

وكان لأوزان الألفاظ أثر في جمال الكتابة العربية، فالكلمات التي على وزن واحد تتشابه ألفاظها الكتابية مثل الكلمات على وزن (فاعل) أو على وزن (مفعول). إن هذه الكلمات في التركيب يكون منها ما يشبه الزخارف العربية.

وتتأرجح الصيغ بين الثبات والتطور، والثبات غالب ولا يسبب هذا جمود العربية، فإن لها على حالتها الحاضرة من الصيغ والأبنية غنى لا تضارعها فيه لغة أخرى من اللغات الراقية التي تفي بحاجات الإنسان في مثل هذا العصر.

فالإخلال بهذه الأبنية وإفسادها إفساد لنظام اللغة، فلذلك كان العرب إذا أدخلوا كلمة أعجمية، احتاجوا إليها، صاغوها على نماذج ألفاظهم وبنوها على أحد أبنيتهم وجعلوها على أحد أوزانهم.

٧- بساطة الجملة العربية في تركيبها وألفاظها- رغم فصاحتها وإيجازها- فالعربي الحديث يمكنه فهم نصوص العربية الفصحى في العصور القديمة دونما مشقة، بدليل قراءتنا للقرآن والسنة وفهمهما، بخلاف الإنجليزية القديمة في العصور الوسطى فلا يفهمها الإنجليزي المعاصر إلا بعد إعادة صياغة نصوصها مبسطة، وهذا ما فعله البريطانيون بتراث (شكسبير) وغيره من أدباء العصور الوسطى.

ويرجع السبب في ذلك إلى أن العرب انتخبوا من كل لهجة أسلسها وأجملها وأوجزها وأحسنها وصاغوا لهجة مشتركة يفهمونها جميعا وهي لهجة الحجازيين، الذين نزل القرآن بها، حيث كانت القبائل تفد عليهم للحج والتجارة فاختاروا الفصيح من لهجات العرب جميعا.كما أن هذه اللهجة كان يصوغ بها الشعراء أشعارهم والخطباء خطبهم ليتنافسوا بهما فيما بينهم في الأسواق الأدبية التي كانت تقام في الحجاز أيضا.

٨- تنوع أساليبها وعباراتها بين الإيجاز والإطناب والتصريح والكناية، فيؤدى المعنى الواحد بأكثر من طريقة بحسب حال المتكلم والسامع [٤، ص٩].

ومما يدل على ذلك شجاعة العربية في الحذف والتقديم والتأخير، والفصل بين المتلازمين، والحمل على المعنى، والتحريف بتغيير حركات الكلمة وحروفها في أحوال معينة [٦، ج٢/٣٦٢- ٤٤٣].

فأما الحذف، فقد ورد عن العرب حذف الجملة والمفرد والحرف والحركة، فمثال حذف الجملة: والله لا فعلتُ، أي: أقسم والله، حيث حذف الفعل والفاعل، وأيضا في باب الإغراء والتحذير وغيرهما من المواضع [٦، ج٢/٣٦٢].

ومثال حذف المفرد، أي الاسم أو الفعل أو الحرف قوله تعالى: (بلاغٌ فهل يُهلَكُ إلا القومُ الفاسقونَ) [الأحقاف:٣٥]، أي: هذا بلاغ. ومثل حذف المضاف قوله تعالى: (ولكن البرَّ منِ اتَّقى) [البقرة:١٨٩]، أي: برُّ من اتقى.

ومثال حذف الفعل قولك: زيدٌ، إذا قال لك أحد: من زارك اليوم؟ أي: زارني زيد. ومثال حذف الحرف ما حكاه سيبويه من قول بعض العرب: " الله لأفعلنّ" ، يريد: والله [١١،ج٣/٤٩٨]. وأيضا ما رواه من قول الشاعر:

من يفعل الحسناتِ اللهُ يشكُرُها		والشرُّ بالشر عند الله مثلان

حيث حذف الفاء من جواب الشرط، والتقدير: فالله يشكرها [١١،ج٣/٦٥.٦،ج٢/٢٨٣].

وأما التقديم والتأخير فلعلة معنوية، وهو باب واسع في العربية، كقوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) [الفاتحة:٥]، حيث قدم المفعول على الفعل. وكقوله تعالى: (أم على قلوبٍ أقفالُها) [محمد:٢٤]، فقدم الخبر: (على قلوب) على المبتدأ: (أقفالها) وجوبا. وكقوله تعالى: (يومَ لا ينفعُ الظالمينَ معذِرتُهم) [غافر:٥٢]، فقدم المفعول:(الظالمين) على الفاعل:(معذرتهم) وجوبا.

وأما الفصل بين المتلازمين فكالفصل بين الجار والمجرور في قوله تعالى: (فبِما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم) [آل عمران:١٥٩]، أي: فبرحمة. وقوله تعالى: (عمَّا قليلٍ ليُصبِحُنَّ نادمينَ) [المؤمنون:٤٠]، أي: عن قليل. والفصل بـــ(كان) الزائدة بين (ما) التعجبية وفعل التعجب، كقولك: ما- كان- أحسن زيدا![١٢،ج٢٣٩/١].

وأما الحمل على المعنى فصوره كثيرة، كتذكير المؤنث والعكس، مثل قوله تعالى: (فمَن جاءَهُ موعظةٌ من ربِّه) [البقرة:٢٧٥]، فذكر الفعل (جاءه) باعتبار أن الفاعل(موعظة) بمعنى (وعظ). ومن تأنيث المذكر وهو قليل نادر قول العرب: " ذهبتْ بعضُ أصابعه" على اعتبار أن بعض الأصابع إصبع وهو مؤنث [٦،ج٤١٧/٢]. و ومثله قراءة الحسن البصري وابن كثير وقتادة الفعلَ (تلتقطه) بالتاء- شذوذا- في قوله تعالى: (يلتَقِطْهُ بعضُ السيَّارةِ) [يوسف:١٠] [١٣، ٧٦. ٦،ج٤١٧/٢].

وأما التحريف بتغيير حركات الكلمة وحروفها في أحوال معينة، وهو يدخل الاسم والفعل والحرف، فمثال الاسم، عند النسب، كقولنا: (حَنَفِيّ) عند النسب إلى(حنيفة)، و(عَدَوِيّ) عند النسب إلى(عَدِيّ)،

ويحدث التحريف عند التصغير أيضا والتكسير ، مثل:(رُجَيل) في تصغير (رجل)، و(رجال) في جمعه [٦،ج٢/٢٣٨].

ومثال تحريف الفعل قولهم في(ظَلِلْتُ): ظَلْتُ، وفي (يئِسَ): أيسَ ،بالقلب المكاني [٦،ج٢/٤٤٠]. وتحريف الحرف مثلما ورد عن العرب في قولهم:(سوف أفعل): سَوْ أفعل، وسَفْ أفعل. وكتخفيفهم (رُبَّ) و(إنَّ) و(أنَّ) [٦،ج٢/٤٤٢].

٩ – ومن خصائص معاني الألفاظ في العربية أن لها طريقة في وضع الألفاظ وتسمية المسميات تقوم على الأمور التالية [٧، ج١/٨]:

أ – اختيار صفة من صفات الشيء الذي يراد تسميته أو بعض أجزائه أو نواحيه أو تحديد وظيفته وعمله واشتقاق لفظ يدل عليه.

ب – تحتفظ العربية بالمعاني الأصلية الدالة على أمثال هذه المسميات، فألفاظها معللة على عكس غيرها من اللغات التي لا تحتفظ بهذه المعاني.

ج – الإشارة إلى أخص صفات المسمى وأبرزها أو إلى عمله الأساسي ووظيفته، على عكس اللغات الأجنبية التي تشير إلى ظاهره وشكله الخارجي أو تركيبه وأجزائه. فمثلاً تسمية الدراجة في العربية تشير إلى وظيفتها وعملها وحركتها. أما في الفرنسية فإن (bicyclette) (ذات الدولابين) تشير إلى أجزائها وتركيبها وحالتها الساكنة. ومثل ذلك السيارة التي تشير تسميتها إلى عملها بينما في الفرنسية كلمة (automobile) تعني المتحرك بنفسه.

ويظهر تفكير العرب وحياتهم واضحين جليين في مفردات لغتهم، فكلمة العامل، مثلًا بعد الإسلام، أخذت معنى الوالي والحاكم، وهذا يدل على أن الولاية عمل من الأعمال. ولفظ (المرء) للمذكر و (المرأة) للمؤنث يدل على تساوي الرجل والمرأة عندهم في الأصل. و(المروءة) هي الصفات المستحسنة المأخوذة من أخلاق الإنسان ذكرًا كان أو أنثى.

وللعربية طريقة في تصنيف الموجودات، فمفرداتها تدل على أن العرب صنفوا الوجود تصنيفًا شاملًا دقيقًا منطقيًا يدعو إلى الدهشة والتعجب، ويدل على مستوى فكري قلما وصلت إليه الأمم في مثل هذا الطور المبكر من تاريخ حياتها.

وهناك ألفاظ تدل على الموجودات بمجموعها مثل (العالَم) و (العالَمين) فهي تشتمل على الخلق كله. وكذلك الشهادة (الحس) وعكسه (الغيب).

وتظهر في الألفاظ العربية أنواع الموجودات كالنبات والحيوان. ويتضمن الحيوانُ الإنسانَ والوحوش والطير والسباع والهوامَّ والسوائم والحشراتِ والجوارحَ والبُغاث (نوع من الطيور في جسمه بقع بيض وسود) .

وتظهر أيضاً الأخلاق والمشاعر كالمكارم والمثالب، والمحاسن والمساوئ، والفرح والحزن، والحسيات والمجردات.

ولم تقتصر العربية على الحسيات كما تقتصر كل لغة في طورها الابتدائي. فإضافة إلى ما فيها مما لا يكاد يحصى من الألفاظ الدالة على الحسيات لم تهمل المعنويات والمجردات. فنجد فيها سعة وغزارة في

التعبير عن أنواع العواطف والمشاعر الإنسانية. كما أنها اشتملت على الكلمات الدالة على الطباع والأفعال والمفاهيم الخلقية. واشتملت كذلك على المفاهيم الكلية والمعاني المجردة، فالمادية دليل الاتصال بالواقع ، والتجريد دليل ارتقاء العقل.

ولها باع في الدقة والخصوص والعموم، إذ تمتاز بدقة تعبيرها والقدرة على تمييز الأنواع المتباينة، والأفراد المتفاوتة، والأحوال المختلفة سواء في ذلك الأمور الحسية والمعنوية. فإذا رجعنا إلى معاجم المعاني وجدنا أمورًا عجيبة. فتحت (المشي) الذي هو المعنى العام أنواع عديدة من المشي:

درج- حبا- حجل- خطر- دلف- هدج- رسف- اختال- تبختر- تخلج- أهطع- هرول- تهادى- تأود...

والأمثلة كثيرة في كتب معاجم المعاني كفقه اللغة للثعالبي وهو مجلد صغير، والمخصص لابن سيده الذي يقع في (١٧) جزءا .

ومن ضروب الدقة ما يظهر في اقتران الألفاظ بعضها ببعض، فقد خصص العرب ألفاظاً لألفاظ ، وقرنوا كلمات بأخرى ولم يقرنوها بغيرها ولو كان المعنى واحداً.فقد قالوا في وصف شدة الشيء: ريح عاصف- برد قارس -حر لافح. وفي وصف اللين: فراش وثير- ثوب لين- بشرة ناعمة- غصن لدن.

وكذلك في الوصف بالامتلاء، والوصف بالجدة، والوصف بالمهارة في الكتابة والخطابة والطب والصنعة ووصف الشيء بالارتفاع الحقيقي أو المجازي وغيرها وغيرها.

لا شك أن هذا التخصيص في تراكيب العربية، في النعت والإضافة والإسناد، نوع من الدقة في التعبير، لأن هذه الألفاظ المخصصة ببعض المعاني والأحوال توحي إلى السامع الصورة الخاصة التي تقترن معها، وكثيراً ما يحتاج المتكلم إلى أن ينقل إلى مخاطبه هذه المعاني والصور متلازمة مقترنة ليكون أصدق تصويرا وأدق تعبيرا وأقدر على حصر الصورة المنقولة وتحديدها.

إن دقة التعبير والتخصيص سبيل من سبل تكوين الفكر العلمي الواضح المحدد. والتخصيص اللغوي والدقة في التعبير أداة لا بد منها للأديب لتصوير دقائق الأشياء وللتعبير عن الانفعالات والمشاعر والعواطف، واستطاعت أن تكون لغة الفلسفة كما كانت لغة العلم والفن والشعر.

١٠- ومن خصائص رسمها أنها تقرأ كما تكتب والعكس، فيهون على المتعلم حروفها وحركاتها وقراءتها دونما مشقة، ولم يشذ في الكتابة عن المقروء إلا القليل الذي لايعتد به، وهذه الميزة لاتجدها في لغة أخرى، فإن أكثر اللغات تحتاج ممن يتعلمها- بعد أن يتعلم كتابتها- أن يتعلم قراءتها كلمة كلمة [٤، ١٠].

١١- ومن خصائص العربية التعـريـب، أي تعريب الألفاظ الأعجمية.

كانت الألفاظ الدخيلة على الفصحى في العصر الجاهلي قليلة تتصل بالأشياء المادية فقط التي لم يعرفها العرب في حياتهم، مثل: (كوب- مسك- مرجان- درهم)، وتعود قلة الدخيل إلى سببين : انعزالهم داخل أرضهم، واعتدادهم بأنفسهم وبلغتهم .

أما بعد الإسلام فقد اتصلت العربية باللغات الأخرى فانتقلت إليها ألفاظ جديدة تتعلق كلها بالمحسوسات، مثل أسماء الألبسة والأطعمة والنباتات والحيوان وشؤون المعيشة أو الإدارة. وكانت طريقة العرب في نقل الألفاظ الأجنبية تقوم على أمرين :

أ – تغيير حروف اللفظ الدخيل، وذلك بنقص بعض الحروف أو زيادتها مثل :

برنامه ← برنامج ← بنفشه بنفسج

أو إبدال حرف عربي بالحرف الأعجمي :

بالوده ← فالوذج ← برادايس فردوس

ب – تغيير البناء حتى يوافق أوزان العربية ويناسب أبنيتها فيزيدون في حروفه أو ينقصون، ويغيرون مدوده وحركاته، مراعين بذلك سنن العربية الصوتية كمنع الابتداء بساكن، ومنع الوقوف على متحرك ، ومنع توالي ساكنين ...

وأكثر ما بقي على وزنه وأصله من الألفاظ هو من الأعلام، نحو : سجستان – رامهرمز... [٧،ج١/٧].

"أما دليلهم إلى معرفة المعرب فهو إحدى ثلاث طرق:

أ – فقدان الصلة بينه وبين إحدى مواد الألفاظ العربية:

بستان: ليس في العربية مادة (بست) .

ب – أن يجتمع فيه من الحروف ما لا يجتمع في الكلمة العربية:

ج ق (جوسق) – ج ص (جَصّ) – ج ط (طازج) ...

ج – أن تكون على وزن ليس في العربية:

إِبْرَيْسَم: إفعيل – آجُرّ: فاعُلّ .. [٧،ج١/٧].

١٢– من خصائص العربية الإيجـــاز:

وهو صفة واضحة في اللغة العربية . يقول الرسول ﷺ : ((أوتيت جوامع الكلم)). ويقول العرب ((البلاغة الإيجاز)) و ((خير الكلام ما قلّ ودلّ)). وفي علم المعاني إيجاز قصر وإيجاز حذف.

<u>الإيجاز في الحرف</u> [٧،ج١/١٠]: والإيجاز في العربية على أنواع ، فمنها الإيجاز في الحرف، حيث تكتب الحركات في العربية عند اللبس فوق الحرف أو تحته بينما في اللغات الأجنبية تأخذ حجمًا يساوي حجم الحرف أو يزيد عليه. وقد نحتاج في اللغة الأجنبية إلى حرفين مقابل حرف واحد في العربية لأداء صوت معين كالخاء (KH) مثلا، ولا نكتب من الحروف العربية إلا ما نحتاج إليه، أي ما نتلفظ به، وقد نحذف في الكتابة بعض ما نلفظ، مثل: لكن – هكذا – أولئك. أما في الفرنسية فنكتب علامة الجمع ولا نلفظها، وأحياناً لا نلفظ نصف حروف الكلمة. ونكتب في الإنجليزية حروفاً لا يمر اللسان عليها في النطق، كما في كلمة (right) مثلاً التي نسقط عند النطق بها حرفين من حروفها (gh) نثبتهما في كتابتها.

وفي العربية إشارة نسميها (الشدة)، نضعها فوق الحرف لندل على أن الحرف مكرر أو مشدد، أي أنه في النطق حرفان، وبذلك

نستغني عن كتابته مكررا، على حين أن الحرف المكرر في النطق في اللغة الأجنبية مكرر أيضاً في الكتابة على نحو: (frapper) و (recommondation) .

ونحن في العربية قد نستغني كذلك بالإدغام عن كتابة حروف بكاملها، وقد نلجأ إلى حذف حروف. فنقول ونكتب (عَمَّ) عوضاً عن (عن ما) و (مِمَّ) عوضاً عن (من ما) و(بِمَ) عوضاً عن (بما) ومثلها (لِمَ) عوضاً عن (لِما).

الإيجاز في الكلمات [٧،ج١/١١]: وبمقارنة كتابة بعض الكلمات بين العربية والفرنسية والإنجليزية نجد الفرق واضحاً:

العربية وحروفها	الفرنسية وحروفها	الإنكليزية وحروفها
أم (حرفان)	mère (أربعة)	mother (ستة)
أب (حرفان)	père (أربعة)	father (ستة)
أخ (حرفان)	frère (خمسة)	brother (سبعة)

وليست العربية كاللغات التي تهمل حالة التثنية لتنتقل من المفرد إلى الجمع، وهي ثانيا لا تحتاج للدلالة على هذه الحالة إلى أكثر من إضافة حرفين إلى المفرد ليصبح مثنى، على حين أنه لا بد في الفرنسية من ذكر العدد مع ذكر الكلمة وذكر علامة الجمع بعد الكلمة:

الباب: البابان – البابين، les deux portes، the two doors

الإيجاز في التراكيب [٧،ج١/١١]: والإيجاز أيضًا في التراكيب، فالجملة والتركيب في العربية قائمان أصلًا على الدمج أو الإيجاز. ففي الإضافة يكفي أن تضيف الضمير إلى الكلمة وكأنه جزء منها:

كتابه: son livre ،كتابهم: leur livre

وأما إضافة الشيء إلى غيره فيكفي في العربية أن نضيف حركة إعرابية أي صوتا بسيطا إلى آخر المضاف إليه فنقول كتاب التلميذ ومدرسة التلاميذ، على حين نستعمل في الفرنسية أدوات خاصة لذلك فنقول : le livre de l'élève ، l'école des élèves .

وأما في الإسناد فيكفي في العربية أن تذكر المسند والمسند إليه وتترك لعلاقة الإسناد العقلية المنطقية أن تصل بينهما بلا رابطة ملفوظة أو مكتوبة، فنقول مثلاً (أنا سعيد) على حين أن ذلك لا يتحقق في اللغة الفرنسية أو الإنجليزية ، ولا بد لك فيهما مما يساعد على الربط فتقول:

(je suis heureux) ، (I am happy) .

وتستعمل هاتان اللغتان لذلك طائفة من الأفعال المساعدة مثل:

(avoir , être) في الفرنسية و (to have , to be) في الإنجليزية .

كما أن الفعل نفسه يمتاز في العربية باستتار الفاعل فيه أحيانا، فنقول (أكتب) مقدرين الفاعل المستتر، بينما نحتاج إلى البدء به منفصلا دوما مقدما على الفعل كما هو الأمر في الفرنسية (je-tu...) وفي

الإنجليزية (... I , you). وكذلك عند بناء الفعل للمجهول يكفي في العربية أن تغير حركة بعض حروفه فتقول : كُتب، على حين نقول بالفرنسية: (il a été écrit)، وفي الإنكليزية (it was written) .

وفي العربية إيجاز يجعل الجملة قائمة على حرف: (قِ) من وَقَى يقي، و (عِ) من وعى يعي، و (قِ) من وقى يقي، فكل من هذه الحروف إنما يشكل في الحقيقة جملة تامة لأنه فعل وقد استتر فيه فاعله وجوبًا.

وفي العربية ألفاظ يصعب التعبير عن معانيها في لغة أخرى بمثل عددها من الألفاظ كأسماء الأفعال.

نقول في العربية : (هيهات) ونقول في الإنجليزية (it is too far)

(شتان) (there is a great difference)

وحرف الاستقبال مثل : (سأذهب) (I shall go)

والنفي أسلوب في العربية يدل على الإيجاز :

العربية : (لم أقابله) ، الإنجليزية : (I did not meet him)

الفرنسية : (Je ne l'ai pas rencontré)

العربية : (لن أقابله) ، الإنجليزية : (I will never meet him)

الفرنسية : (Je ne le rencontrerai jamais)

الإيجاز في اللغة المكتوبة [٧،ج١/١٢]:

فمثلاً سورة (الفاتحة) المؤلفة في القرآن من (٣١) كلمة استغرقت ترجمتها إلى الإنكليزية (٧٠) كلمة .

ويقول الدكتور (يعقوب بكر) في كتاب (العربية لغة عالمية : نشر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة ١٩٦٦م) : " إذا ترجمنا إلى العربية كلاما مكتوبا بإحدى اللغات الأوروبية كانت الترجمة العربية أقل من الأصل بنحو الخمس أو أكثر"[نقلا عن: ٧، ج١٢/١].

الفصل الثاني

طرائق العربية لزيادة الثروة اللفظية

للغة العربية طرائق عدة لتنمية ثروتها اللغوية اتبعها علماء اللغة قديما وحديثا بغية تعريب المصطلحات العلمية ولاستيعاب ألفاظ الحضارة الإسلامية قديما والحضارة الغربية حديثا، وأهم هذه الطرائق [انظر: ١٤، ١٦. ١٥، ٤٦. ١٦، ٥٧. ١٧، ٢٣٧. ٩، ٢٠٣]:

١- الارتجال: ولا يكون إلا من طريق الاشتقاق والمجاز، وفي عصور الفصاحة وحدها، ومقصور على العربي الفصيح، ولو خالف الجمهور، بشرط عدم مخالفة القياس والسماع، والعلة هنا في جواز مخالفة الجمهور بأنه ربما تكون لغة لم تصلنا عفا رسمها وطال عهدها [٦،ج١/٣٨٦،ج٢/٢٣]. وقد حكى ابن جني عن رؤبة الراجز[٢] وأبيه

---

(٢) هو عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر ينتهي إلى زيد مناة بن تميم أبو الجحاف ويقال أبو العجاج التميمي، الراجز المشهور من أعراب البصرة مخضرم.سمع أباه وأبا هريرة والنساب البكري. روى عنه ابنه عبد الله وأبو عبيدة ويحيى بن سعيد القطان والنضر بن شميل وعثمان بن الهيثم وأبو زيد وأبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر. وتوفي سنة خمس وأربعين ومائة. وكان لغوياً علامة. وقال محمد بن سلام: قلت ليونس: هل رأيت عربيا أفصح من رؤبة؟ فقال: لا، ما كان معد بن عدنان أفصح منه. وقيل له أيضا: من أشعر الناس؟ فقال: العجاج ورؤبة.انظر ترجمته في:[١٨،ج١٤/٥٥ برقم:٤٤٥١] .

العجاج أنهما كانا يرتجلان ألفاظا لم يسبقا إليها [١٦، ٦٠]. كما حكى يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء قوله: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير" [٦،ج١/٣٨٧].

ورغم اشتراط الفصاحة وعصرها لمن يرتجل فإن البعض أجازه للمحدثين للاستعاضة بالمرتجل- وكذلك بالمهمل- عن الألفاظ الأعجمة التي تقتحم ديارنا [منهم:ابن قتيبة، وأحمد حسن الزيات، وعبد الله بن كنون المغربي، ومحمود تيمور. ١٦، ٦٣].

ومن هذه الألفاظ [١٦، ٦٤]:

وصاوص (بدلا من) شيش النافذة	الشراب(بدلا من) الشربات
الساهرة (بدلا من) اللمبة السهاري	الجمة (بدلا من) الباروكة
المرسم (بدلا من) الاستوديو	مهفة (بدلا من) ريشة التنظيف

٢- القياس: هو حمل كلمة على نظيرها في حكم، على ألا يوجد ما يعارض النظير، أو وُجِد ما يعارضه ولكنه قليل نادر، والآخر كثير شائع، فيقاس على الكثير، والذي يحمل عليه يسمى: "مقيسا" أو "قياسا". والقياس وسيلة رائعة من وسائل تنمية اللغة وخاصة إذا أخذنا برأي الكوفيين في القياس وهو جوازه على ثلاثة شواهد، لا كما قال البصريون على ما يزيد على عشرة شواهد [١٦، ٦٥]. وطريقته كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس هي: "الاشتقاق حين يكون الغرض من القياس تنمية الألفاظ" [نقلا عن: ١٦، ٦٤].

وقديما قال ابن جني رحمه الله [٦،ج١/ ١١٥]: " ما قيس على

كلام العرب فهو من كلام العرب". وفي عصر النهضة ولضرورة التوسع في اللغة اتجهت المجامع اللغوية إلى فتح باب القياس على مصراعيه، من ذلك إقرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة ما يأتي [١٩، ٣٦، ٣١]:

- صيغة "فعّال"للدلالة على الحرفة، نحو: " نجار، وحداد وجزار،..." لكثرة استعمال الناس لها رغم قلتها عن العرب.
- صياغة "مَفْعَلة" قياسا من أسماء الأعيان الثلاثية الأصول، للمكان الذي تكثر فيه هذه الأعيان، من الجماد أو النبات أو الحيوان، نحو: "مأسدة" للمكان الذي تكثر فيه الأسود.

٣- الاشتقاق: وهو نوعان: أصغر وأكبر، فالأصغر أن تشتق من المصدر: الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل والمفعول والمبالغة والزمان والمكان وغيرها، وقد ذكرنا طرفا منه عند حديثنا عن خصائص العربية، أما الاشتقاق الأكبر فهو-كما عرفه ابن جني- أن تأخذ أصلا ثلاثيا وتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا، وإن ند شيء من ذلك عن المعنى الجامع لها رُدّ بالتأويل إليه، نحو (ك ل م) و(ك م ل) و(م ل ك) و(م ك ل) و(ل ك م) و(ل م ك) حيث إنها تحمل معنى القوة والشدة في تقاليبها الستة [٦،ج١/١٤ ،ج٢/١٣٥].

والاشتقاق وسيلة رائعة لتوليد الألفاظ وتجديد الدلالات، لأنه يمكننا من إنقاص الصيغة ومن الزيادة عليها ومن إحياء ما مات والقياس عليه مثل استعمال: (ودع ووادع) و(وذر ووذر) اللذين استغنى عنهما العرب الفصحاء بـــ:(ترك وتارك) وهكذا، وليس هذا لأن (ترك) أفصح من (ودع ووزر)، وإنما الفصيح ما أفصح عن المعنى، واستقام لفظه على القياس، لا ما كثر استعماله [٢٠، ٣٦. ١٦، ٩٣].

٤- حروف الزيادة: فزيادة الحروف على أصول الكلمة عامل هام من عوامل نمو اللغة، حيث ينتج عن هذا توليد ألفاظ بعضها من بعض. فقد اجتهد علماء اللغة في حصر الألفاظ الأصلية وحددوا حروف الزيادة على الأصل، وبينوا أوزان الألفاظ الزائدة على الأصلي والتزمت بها معاجم اللغة، فلم يُستعمل ما لم يرد من الأصلي مزيدا عليه، وصار هذا قيدا على الاستعمال، فقرر مجمع القاهرة بعض القرارات بهذا الشأن منها:

* أن حروف (الألف والسين والتاء) تدخل على الفعل ومعناها الطلب أو الصيرورة، مثل : استهدف واستنتج، ولو لم ترد هذه الكلمات بعينها في المعاجم.

* (فعّل) المضعف مقيس للتكثير والمبالغة وإن لم تنص المعاجم عليها، مثل: (خدّر) و(حضّر) و(شرّع).

* قياسية تعدية الفعل الثلاثي بالهمزة، مثل: (أحكم) و(أجاد) [١٩، ٥٦،٥٥،٤٣. ١٦، ٩٧].

٥- النحت: هو أن تنحت من كلمتين فأكثر كلمة لتدل على معنى الألفاظ التى نحتت منه، بغرض الاختصار والسهولة اللفظية. فكان العرب ينحتون من الجملة فعلا، مثل (بسمل) و(جعفد)، أي قال: بسم الله الرحمن الرحيم، و: جعلني الله فداءك. كما كانوا ينحتون من كلمتين كلمة تحمل معناهما، مثل: (ضبطر)، للرجل الشديد، من: (ضبط) و(ضبر)، و(صلدم)، للشديد الحافر، من: (صلد) و(صدم).كما نحتوا من اسمين اسما لينسبوا إلى علم أو مدينة، مثل: (طبرخزي) نسبة إلى (طبرستان، وخوارزم)، وكما قالوا: (عبشمي) نسبة إلى: (عبد شمس)

[٢١، ٢٠١. ١٦، ١٠٢]. والملاحظ في النحت ثلاثة أشياء:

أولا: لا يجب الأخذ من كل كلمات المنحوت منه، مثل: (دمعز) أي: أدام الله عزك، و(مشكن) أي: ما شاء الله كان.

ثانيا: لا يجب أخذ الكلمة الأولى بتمامها.

ثالثا: لا تجب المحافظة على حركات الحروف وسكناتها في النحت كما المنحوت منه، مثل: (مشكن).

رابعا: ترتيب الحروف في المنحوت كما هو في المنحوت منه موضع خلاف بين علماء اللغة.

وقد أقر مجمع القاهرة جواز النحت عندما تلجئ إليه الضرورة العلمية [٢١، ١٥٨. ١٩، ٩]. مثلما أقره من مصطلحات كيمياوية، نحو:(حلماً)، أي حلل بالماء، و(حلكح)، أي حلل الكحول، و(برمائي) من (البر والماء) [٢٢، ٢٠٤].

٦- القلب: هو استبدال حرفين مكانهما في كلمة واحدة، فتصير الكلمة بهذا الاستبدال كلمتين، كل واحدة مستعملة بنفس المعنى، نحو: (جذب) و(جبذ)، و(ينس) و(أيس)، وأسير (مُكَلّب) و(مكبَّل)،و(صراط) و(سراط)، و(مسيطر) و(مصيطر)، و(مكة) و(بكة). وقد تكلم عليه كثير من اللغويين كالمبرد، ابن فارس في "الصاحبي"، وابن دريد في "الجمهرة"، وأفرده ابن السكيت بكتاب (القلب والإبدال)، وأنكره ابن درستويه في كتاب له بعنوان (إبطال القلب) [٨،ج١/٤٨١. ٢٠، ٣١٣].

وقال السخاوي في شرح المفصل:" إذا قلبوا لم يجعلوا للفَرْع مصدرا، لئلا يلتَبس بالأصل، بل يُقْتَصر على مصدر الأصل، ليكون شاهدا

للأصالة نحو: (يئس يأسا)، و(أيس) مقلوب منه ولا مَصْدَرَ له، فإذا وُجِد المصدران حكَم النُّحَاة بأن كلَّ واحد من الفعلين أصلٌ، وليس بمقلوب من الآخر. نحو: (جبذ) و (جَذب)، وأهلُ اللغة يقولون: إن ذلك كلَّه مقلوب" [نقلا عن: ٨،ج١/٤٨١].

و الإبدال: هو إقامة الحروف بعضها مقام بعض، نحو: (مَدَح) فلانا و(مَدَهَه) بإبدال الهاء مكان الحاء، ونحو:(أرَقْتُ) الماء و(هَرَقْتُه)، و(مَصْمَص) إناءَه و(مَضْمضه) إذا غسله. و ليس المراد بالإبدال أنّ العرب تتَعَمَّد تعويض حرف من حرف، وإنما هي لغاتٌ مختلفة لمعانٍ متفقةٍ؛ تتقارَبُ اللفظتان في لُغتين لمعنى واحد [٨،ج١/٤٦٠].

ويرجع السبب في حدوث القلب والإبدال الميل إلى السهولة، أو التفنن في اللفظ، أو مجاورة الأصوات، أو انتقال النبر. ويعتقد الشيخ العلايلي بأن مقدار الثروة اللفظية التي حازتها العربية إنما كانت من عمل "القلب" فقط، بالمقارنة بعمل "الإبدال" الذي هو نذر يسير [نقلا عن: ١٦، ١٣٢].

وقد قال عنهما الأب " أنِسْتاس ماري الكرملي" : " مما وسع كلام الناطقين بالضاد توسعا لا يقابله شيء في سائر اللغات المعروفة ما وقع فيها من القلب والإبدال..." [نقلا عن:٢٢، ٣٣٤].

ويستفاد من اختلاف اللفظين في الظاهرتين ، أي القلب والإبدال، بالتعاقب حين ترجمة المصطلحات العلمية المتشابهة والقريبة، وقد انتفع به كثير من المجتهدين في وضع المصطلحات العلمية بالتسمية الدقيقة [١٦، ١٣٢].

٧- المعرب والدخيل: قد ذكرنا طرفا منهما عند الحديث عن خصائص الفصحى. أما المعرب فهو اللفظ الذي نقله العرب الخلص، في عصر الاحتجاج، من اللغات الأجنبية إلى العربية، مع مراعاة تغييره بما يوافق أوزان العربية وقوانينها، مثل: السندس والزنجبيل، والسراط، والفسطاط، والإبريق، والاستبرق...، وأما الدخيل فهو لفظ أخذته اللغة من لغة أخرى في مرحلة من حياتها متأخرة عن عصر الاحتجاج، وتدخل الكلمة الدخيلة إلى العربية كما هي أو مع تغيير طفيف في النطق، مثل: كوفية، وجمرك، واللمبة، والموتور، والبابور، والتليفون، والتليفزيون... [١٥، ٧٩]. وهو ما شاع على ألسنة الناس في الصحف والإذاعة والتلفاز وفي أحاديث الناس عامة.

ونظرا لظهور مصطلحات علمية كل يوم نادى البعض، منهم (أحمد حسن الزيات) بوجوب تعريب الألفاظ الأعجمية كيفما اتفق بدون قيد أو شرط، وعلى النقيض من هؤلاء يرى آخرون، منهم(أحمد الإسكندري، والرافعي، وعز الدين التنوخي) عدم اللجوء إلى التعريب، لوجود ما يكفينا في بطون المعاجم، وهناك طرف ثالث، منهم (طه حسين، ومحمد الخضري، وعبد القادر المغربي، وأحمد أمين، وأحمد زكي باشا) يقف موقفا وسطا، ويرون جواز الاستعانة بالتعريب لسد حاجة العربية إلى المفردات، بشرط ألا يفسد هذا المعرب أصلا من أصول العربية [١٦، ١٤٤، ١٤٧].

وجاء قرار مجمع القاهرة موافقا للرأي الوسط،وهذه النصوص الخاصة بالتعريب:

" يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية- عند الضرورة- على طريقة العرب في تعريبهم".

"يفضل اللفظ العربي على المعرب القديم، إلا إذا اشتهر المعرب".

"ينطق باللفظ المعرب على الصورة التي نطقت بها العرب" [١٩، ٨٣، ٨٥، ٨٦].

٨- اللفظ بين الحقيقة والمجاز: من وسائل تنمية الألفاظ في العربية أن يكون للكلمة معنى أصلي موضوع لها وهو الحقيقي، ثم يصير لها معنى آخر تستخدم فيه أيضا وهو المعنى المجازي، لوجود رابطة بين المعنيين [١٥، ٥١. ١٦، ١٥١].

ومن أمثلة ذلك [١٥، ٥٢]:

الكلمة	المعنى الأصلي الحقيقي	المعنى المجازي
المُحَيّا	قولهم: حياك الله، عندما يرى وجهه	الوجه، مع إرادة المدح
البرق	اللمعان	ظاهرة البرق و التلغراف
الخُفّ	للجمل كالقدم للإنسان	نوع لين من الأحذية
البندقية	الثمر الجاف الطيب المعروف	سلاح للرماية، لأن رصاصها كان يشبه حبات البندق

اللفظ	إخراج أي شيء من الفم	النطق وهو إخراج الكلام
الصلاة	الدعاء	العبادة المعروفة
الحج	القصد	أداء الفريضة المعروفة

وهذه الألفاظ التي عرف لها دلالات أخرى لها ثلاثة أحوال:

١- إما لغوية، أي وضعها أهل اللغة اصطلاحا أو إلهاما، كـ(الأسد) للحيوان المفترس.

٢- وإما عرفية، أي وضعها أهل العرف العام أو الخاص، كإطلاق "الدابة" على ذوات الأربع، وهي أصلا اسم لكل ما يدب على الأرض. ومثل اصطلاحات النحاة: الفاعل والمفعول والصفة وغيرها.

٣- وإما شرعية، وهي ما وضعها الشارع، مثل الصلاة والزكاة للعبادات المعروفة [١٦، ١٥١].

فكما هو واضح من الأمثلة فإن تنوع دلالات الألفاظ يوسع دائرة استخدامها ويثري المعجم العربي ويساعد في الترجمة إلى العربية.

٩- محاكاة الطبيعة الصامتة والطبيعة ذات الأصوات: نقصد بالطبيعة الصامتة جميع الموجودات الصامتة التي لا جرس لها ولا صوت كصنوف النباتات وألوانها، وأشكال الأرض، والغياض والغدران،

والسماء بسحبها وكواكبها، فضلا عن الروائح المختلفة ومظاهر الطقس الكثيرة.

أما الطبيعة ذات الأصوات فمثل أصوات النباتات والأشجار وأصوات الحيوانات والطيور،كـــخرير الماء وحفيف الأشجار وعواء الذئاب وزئير الأسود، وهزيم الرعد، وفحيح الأفعى،وطنين الطبل، ونشيش اللحم عند قليه،وغيره الكثير مما حفلت به المعاجم وكتب اللغة المختلفة.

وكذلك الأصوات الدالة على بعض أفعال الإنسان، مثل: شرب ورشف ولحس ومص وسعل وتف وبصق وبزق وتجشأ وصاح وصرخ ،عطس وهمس وأنّ وغيرها.

وكذلك الأفعال الرباعية المضاعفة التي بوزن (فعفع) فأكثرها يدل على أصوات، مثل: تعتع وتغتغ وثغثغ وتختخ وضغضغ وتمتم وغمغم وجمجم و مجمج ولجلج وغيرها.

وهناك أفعال تدل على الصياح والضحك، مثل: قهقه وقرقر وكدكد وكركر ومأمأ (كلها بمعنى أغرب في الضحك)، وكتكت(ضحك دون القهقهة) وغيرها [انظرها في: ١٥، ٤٦-٥١].

فكل ما سبق ينمي المعجم العربي تنمية كبيرة جدا ويعطي منشئ المصطلحات العلمية سعة في اختيار الترجمة المناسبة للكلمات الأجنبية. فجميع عوامل تنمية الثروة اللفظية السابقة استخدمها العرب الفصحاء وسبقونا إليها حينما احتاجوا إليها، وكذلك استخدمها العلماء العرب زمن ازدهار الترجمة والتأليف العلمي في العصور الإسلامية الزاهرة. ونبه إليها رواد الترجمة العلمية في بداية عصر النهضة في العالم العربي،

فحري بنا الآن الاقتداء بالسابقين بدلا من أن نترك لغتنا ونصمها بالضعف ونحكم عليها بالموت، حاشا لله.

النتائج

خلص البحث إلى النتائج الآتية صراحة أو ضمنا:

١- إن العربية الفصحى هي أقوى الأسباب التي توحد الشعوب العربية والإسلامية وتجمع شملهم وتقوي دعائم أركانهم، وغيابها يضعف القومية العربية ويوهن الروابط العربية، بل إن موتها سيؤدي مباشرة إلى موت العرب جميعا.

٢- التأكيد على أن العربية الفصحى تمتعت بخصائص رفيعة جعلتها أهلا لأن يختارها الله عز وجل وعاء لقرآنه الخالد الموجه إلى العالمين، كما جعلتها مرنة قوية تضم عوامل ثرائها المستمر.

٣- إن العربية الفصحى مثلما أخذت من اللغات الفارسية والحبشية والنبطية وغيرها- أثرت في لغات عديدة، فيذكر صاحب كتاب (الفصحى لغة القرآن ص٢٨٣) وجود (١٦٥٠) كلمة قرآنية في اثنتين وعشرين لغة حية منها: الإنجليزية والفرنسية والروسية والفارسية والأفغانية والسريانية والآرامية... وحلت محل لغات أخرى، في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، مثل: القبطية والسريانية والبربرية وغيرها، كما أنها قاومت لغات أخرى أرادت أن تمحوها كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والبرتغالية والإيطالية أثناء الاحتلال الغربي للبلاد العربية والإسلامية.

٤- أن من يحاول إضعاف هذه اللغة أو الزراية بها فإنما يحاول هدم الإسلام من أساسه، لأن موتها يؤدي إلى انقطاع الصلة بين المسلمين وبين تراثهم، ومن يفعل ذلك عامدا فنحسبه على خطر عظيم.

٥- لا يوجد أدنى شك في صلاحية العربية الفصحى لأن تستوعب علوم الحضارة الحديثة الآن، كما استوعبت ما يزيد على خمسين علما عمليا- بخلاف العلوم النظرية- ألف فيها علماء الإسلام القدامى بتلك اللغة الشريفة، وترجموا إليها تراث الفرس والهنود واليونان والرومان.

٦- أن السبيل الوحيدة لإعادة العربية إلى عصور قوتها، هو أن يهتم بها أهلها تعليما بها وتعلما وتبسيطا، ويجب إلزام الجامعات العربية وغير العربية بأن تدرس المناهج بها دون سواها، وأن نعظم العربية في نفوسنا، قبل أن نطلب من غيرنا تعظيمها.

٧- وجود العاميات في الدول العربية ليس دليلا على عدم صلاحية الفصحى لغة تواصل، فالفصحى لغة تواصل مشتركة بين العرب جميعا وهي لغة علم وثقافة، كما كانت لغة قريش- التي نزل بها القرآن- هي اللغة المشتركة لجميع القبائل العربية التي كان لها لهجات محلية أيضا. و العاميات توجد في اللغات الأوربية أيضا بجانب لغة الثقافة والكتابة.

ثبت
المصادر والمراجع

أولا: الكتب:

[١] عبد الرحمن، عائشة، *لغتنا والحياة*، مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية،(١٩٩١م).

[٢] شاهين، عبد الصبور ، *في علم اللغة العام*، مصر، مكتبة الشباب، الطبعة الثالثة(د.ت).

[٣] البافوري، *أحمد حسن ،أثر القرآن الكريم في اللغة العربية*، مصر، دار المعارف، (١٩٧٣م).

[٤] الجندي ، أنور ، *الفصحى لغة القرآن*، لبنان، دار الكتاب اللبناني، مصر دار الكتاب المصري، (د.ت).

[٥] أنيس، إبراهيم ، *اللغة بين القومية والعالمية*، مصر، دار المعارف (١٩٧٠م).

[٦] أبو الفتح عثمان بن جني، *الخصائص*، تح.محمد علي النجار،مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٤٠٦-١٤٠٨هـ،١٩٨٦-١٩٨٨م).

[٧] السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر ، *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي،لبنان، المكتبة العصرية، د.ت.

[٨] حماد، محمد أحمد، *الثروة اللفظية في اللغة العربية*، دار النشر الدولي، الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م).

[٩] ابن منظور، محمد بن المكرم، *لسان العرب*، تحقيق: عبد الله علي الكبير، و محمد أحمد حسب الله، و هاشم محمد الشاذلي، مصر، دار المعارف، (د.ت).

[١٠] سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، *الكتاب*، تحقيق عبد السلام هارون،مصر، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

[١١] الصبان، محمد بن علي ، *حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك*، مصر، دار إحياء الكتب العربية، (د.ت).

[١٢] ابن خالويه، *مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع*، تحقيق: برجستراسر، مصر، عالم الكتب، (١٩٣٤م).

[١٣] السامرائي، إبراهيم ، *تنمية اللغة العربية في العصر الحديث*، معهد البحوث والدراسات العربية، (١٩٧٣م).

[١٤] ظاظا، حسن ، *كلام العرب من قضايا اللغة العربية*، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٧٦م).

[١٥] شاهين، توفيق محمد ، *عوامل تنمية اللغة العربية*، القاهرة، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى: (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م).

[١٦] القزاز، عبد الجبار جعفر ، *الدراسات اللغوية في العراق في النصف الأول من القرن العشرين*،العراق، منشورات وزارة الثقافة العراقية، (١٩٨١م)، سلسلة دراسات (٢٢٦).

[١٧] الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى،مصر، دار إحياء

التراث العربي، الطبعة الأولى: (١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م).

[١٨] أحمد، محمد خلف الله، وأمين، محمد شوقي، *مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما (١٩٣٢-١٩٦٢م): مجموعة القرارات العلمية من الدورة الأولى إلى الدورة الثامنة والعشرين*، مصر، الطبعة الثانية (١٣٩١هـ- ١٩٧١م).

[١٩] ابن درستويه، *تصحيح الفصيح وشرحه*، تحقيق د.محمد بدوي المختون، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م).

[٢٠] لجنة من مجمع اللغة العربية، *النحت*" مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٧ سنة (١٩٤٨م)، ٢٠١- ٢٠٤.

[٢١] علي، نبيل، *العرب وعصر المعلومات*، الكويت، عالم المعرفة، (١٨٤)، (١٩٩٤م).

ثانيا: المواقع الإلكترونية:

[٢٢] السليم، فرحان، *اللغة العربية ومكانتها بين اللغات*، د.فرحان السليم،بحث منشور على موقع صيد الفوائد، رابطه:

http://www.saaid.net/Minute/٣٣.htm